

المخلص

إن دراسة موضوع "الخلفاء المسلمين الواقع والنموذج وبعيداً عن السياسة" هي محاولة لكشف اللثام عن طبيعة العلاقات الاجتماعية داخل بيت الخليفة المسلم منذ عهد الخليفة الأول أبو بكر الصديق وحتى نهاية عصر الخليفة المعتصم الذي كان ما زال يحتفظ بهيبة الخليفة، أي الفترة التي يصفها ابن خلدون بالعصر الذهبي للخلافة العباسية.

يتعرض هذا البحث للحياة الشخصية للخليفة المسلم، وهو محاولة لعرض صورة مقارنة للواقع الذي كان يعيشه الخليفة وليس ما هو متخيل من قبل البعض منا عن هؤلاء الخلفاء.

ولعل السؤال الأهم الذي تحاول الدراسة الإجابة عليه هو: "ما هي أهم العوامل التي لعبت الدور الأساسي في بلورة شخصية الخليفة؟ وهل وصف المؤرخون الخلفاء "بالعظماء" لأنهم تمتعوا بصفات قيادية عظيمة أم أن ذلك كان لأسباب وعوامل أخرى؟"

تتكون الدراسة من مقدمة وأربع فصول وخاتمة حيث جاء الفصل الأول تحت عنوان **خلفية تاريخية**. تتناول هذا الفصل مسألة الخلافة كمصطلح وعالج رؤية الخلفاء لمفهوم الخلافة وكيفية تعاملهم مع منصب الخليفة، وكيفية تعامل المسلمين مع هذا المنصب وكيفية تولي كل خليفة لهذا المنصب والظروف المحيطة بتتصيبه. يعتبر هذا الفصل الإطار النظري للدراسة.

ومن البديهي القول بأن الخلافة لم تقم وفقاً لشرع أو قانون إسلامي موضوع مسبقاً وإنما نشأت وفق الحاجة والتجربة العملية التي عاشها النظام الإسلامي. ولعل اختلاف طرق تنصيب الخلفاء الراشدين عن بعضهم البعض مما يؤكد عدم وجود نص ديني واضح يحدد آلية تولي

ال خليفة لمنصبه، كما أن الخلافة نشأت وفقاً للظروف التي عايشها المسلمون، ووفق المصالح العائلية للخلفاء، خاصة في الفترتين الأموية والعباسية. ولعل تنصيب الخليفة في هاتين الفترتين سار على نهج النظام الوراثي الذي كان معروفاً في تلك الفترة خاصة في الدول المجاورة للدولة الإسلامية.

تتاول الفصل الثاني الصورة النمطية للخلفاء كما صورها لنا المؤرخون. وجاء هذا الفصل تحت عنوان "العوامل المبلورة لشخصية الخليفة" يمكن القول بأن هذا الفصل وضّح بأن العظماء من الخلفاء هم من وفرت الكتب التاريخية تفاصيل كثيرة عن حياتهم حتى ولو كانت مدة حكمهم قصيرة، ومن هؤلاء الخليفة عمر بن عبد العزيز. ومن الملفات للنظر أن المصادر تعرضت لحياة خلفاء حكموا لفترات قصيرة مثل عمر بن عبد العزيز حيث تعرضت المصادر بشيء من التفصيل مثل تعليمه ومعلميه ونشأته. في حين أن تلك الكتب لم توفر القدر نفسه من التفاصيل والدقة عن خلفاء عاشوا في نفس الفترة وحكموا لفترات طويلة مثل أبناء عمه عبد الملك بن مروان.

ومن الخلفاء من توفرت معلومات عن نشأتهم لكون آباءهم وأجدادهم من الخلفاء، ومثال ذلك هارون الرشيد، المأمون والأمين وغيرهم. ومن الواضح أن المعلومات المتوفرة عن تربية ونشأة الخلفاء في الفترة العباسية هي أكثر تفصيلاً من تلك المتعلقة بخلفاء الفترة الأموية علماً أن المعلومات متوفرة بكثرة عن تفاصيل حياة الخلفاء الراشدين. إن المعلومات عن الفترة الأموية قد تكون فقدت بسبب ما تعرض له إرث الأمويين من طمس وتهميش على يد العباسيين وبسبب تحيز كتب التاريخ لأعدائهم العباسيين.

جاء الفصل الثالث تحت عنوان "العلاقات الأسرية داخل بيت الخليفة"، وتم التركيز في هذا الفصل على علاقة الخليفة الراشدي بأبنائه وزوجاته، كما عرض نماذج مماثلة من الفترتين الأموية والعباسية. قد بينت الدراسة أن الخلفاء لم يتبعوا نهجاً واحداً في التعامل مع أبنائهم وزوجاتهم وجواريتهم، ولم نجد صورة نمطية واحدة لطبيعة العلاقات الأسرية داخل بيوت الخلفاء. فهناك من تعامل بحزم وشدة مع أبنائه وزوجاته مثل عمر بن الخطاب وعبد الملك بن مروان. وهناك من تعامل بلين بل وسمح لزوجته بالتدخل في شؤون الحكم مثل المهدي وزوجته الخيزران. ومن الملفت للنظر أن عدداً من الخلفاء العظام كان لهم زوجات تميزن في عدد من المجالات مثل الحكم والبذل والعطاء والحكمة، نذكر منهن عاتكة زوجة عبد الملك، والخيزران زوجة المهدي، وزبيدة زوجة هارون الرشيد.

أما الفصل الرابع فحمل عنوان "نهايات الخلفاء" ركز هذا الفصل على أعمار الخلفاء وحياتهم وموتهم، وقد تكون هذه المحطة هي الكاشفة عن طبيعة المجتمع المصغر الذي عاشه الخلفاء والتي كثرت فيها المؤامرات. واهتم البحث بأعمار الخلفاء الذين تناولتهم الدراسة، ولعل قراءة سريعة لأعمارهم تشير إلى أنهم عاشوا أعماراً متوسطة إن لم تكن قصيرة مقارنة، على الأقل، بأعمار العلماء الذين عاشوا في عصرهم.

أما من حيث النتائج التي توصلت لها الدراسة فتتمثل بالعديد من النقاط ولعل أهمها تشير إلى أن الخلفاء لم يحظوا "بقُدسية" عند المسلمين الذين عاصروهم بالعكس من القدسية التي حظوا بها في فترات لاحقة، وقد انطبق هذا على الخلفاء الراشدين "المبشرين بالجنة" وأصحاب الرسول محمد ﷺ كما انطبق على الخلفاء الأمويين والعباسيين، بل ربما كان العكس من ذلك

خ

فكلما ابتعدنا عن فترة الرسول أضعف الخلفاء على أنفسهم هيبته وقديسية وأحاطوا أنفسهم برهبة أكثر وذلك لترهيب وإخضاع الرعية.

هناك تفاوت واضح في المعلومات المتوفرة عن الخلفاء، فهناك خلفاء تتوفر تفاصيل كثيرة عن حياتهم الشخصية، مثل: عبد الملك بن مروان، والمنصور، وهارون الرشيد، والمأمون، علماً أن العامل المشترك بين هؤلاء الخلفاء هو استمرارهم في الحكم لفترات طويلة، وبالتالي فإن مكوثهم فترة طويلة في الحكم جعل الناس يألفونهم ويعتادون عليهم ويتناقلون أخبارهم. وهناك بعض الخلفاء من خفتت الأضواء عن فتراتهم، كون من سبقوهم كانوا أعظم منهم، ومن هؤلاء نذكر الوليد بن عبد الملك، والمهدي والمعتصم.

رغم أن المؤرخين لم يحكموا على خليفة معين بأنه عظيم بسبب مدى تقيده والتزامه بالدين، وأدائه للعبادات، إلا أننا نرى في بعض الأحيان أن المؤرخين يشيرون إلى ذلك من باب تمييز بعض الخلفاء على بعضهم، ومن ذلك ما يقال عن خليفة مثل هارون الرشيد الذي كان يحج سنة ويغزو سنة، وخليفة مثل المهدي الذي كان يختم القرآن 30 مرة في رمضان، وكان حريصاً على أداء العبادات، وبالمقابل نرى أن بعض الخلفاء تم الانتقاص من مكانتهم بسبب خروقاتهم الدينية، وعلى رأس هؤلاء الخليفة الوليد بن يزيد.

هناك ارتباط واضح بين نجاح الخليفة في الحكم، ونجاحه في حياته الشخصية واهتمامه بأسرته، فمن الخلفاء الذين ربوا أولادهم تربية حسنة واهتموا بأسرهم، وكانوا في الوقت نفسه ناجحين إدارياً وسياسياً، نذكر عبد الملك بن مروان والمنصور، الذين خصصوا وقتاً جيداً لعائلاتهم، وحرصوا على تربية أبنائهم بطريقة جيدة. وفيما يتعلق بالنساء، إن ما يسترعي الاهتمام

إن الوضع الاجتماعي للمرأة لم يكن مهماً عند ارتباط الخلفاء بهن بل وربما كان يطمع بعض الخلفاء للارتباط بنساء من سبقوهم من الخلفاء وكأن النساء جزء من تركة الخلفاء السابقين، ومما يلفت النظر أن بعض الخلفاء تزوجوا بمن يصغرهم سناً بشكل كبير حتى أن بعضهم تزوج بنات لم يبلغن سن العاشرة عندما كانت أعمارهم أكثر من ستين عاماً، ومن الأمثلة على ذلك زواج عمر بن الخطاب من أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب.

هذه الدراسة تبين أن هناك نماذج مختلفة للخلفاء المسلمين وكل نموذج يختلف من حيث النشأة والتربية والتعامل مع أبناء الأسرة التي ينتمي لها كل خليفة. ولكن ما يجمع خلفاء عظام مثل عمر بن الخطاب ومعاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان والمنصور هو نشأتهم العربية والدولة القوية التي أنشأوها، ونضيف لهؤلاء هارون الرشيد الذي ورث دولة قوية عن آباءه وأجداده وأحاط نفسه بالعلماء والكتاب الذين لم يتورعوا عن مدحه وتقديمه على أنه خليفة عظيم، وكذلك الحال فيما يتعلق بابنه الخليفة المأمون.